ولذا فاعتراضه على الاله المسيحي ليس اعتراضا عقلانيـــا او حتى عاطفيا ، بـــل هو اعتراض قبلي من العسير علينا كبشر وكأفراد التعاطف معه او تقبله ، ولان احساسه بمأساته قبلي ، فانه يتذكر على التو طفولته بكل سماتها وطقوسها اليهودية :

آلهتي الجديدة ! تجري أمام عيوني
صور من أيام طفولتي : رجل لم يبلغ الثالثة عشر بعد ،
ذكور في البداية بالبارمتسفا ، وبيد مبتدىء مرتجفة ،
آلف حولي التفيليم ، (الشال) ، خشية ان يسقط ...
وتحت نير التوراة انحني ، توراة آبائي .

وحينما يرسم لنا الشاعر صورة حياته اليهودية السابقة ، نكتشف انها « لم تجلب لـــه سوى السعادة » ، فالريح الرقيقة تمر على منزله الصغير تداعبه ، والنحل ينتقل بـــين الازهار ، واوراق الاشجار خضراء ، اما الثمار فذهبية ، والطيور تشدو وتغرد وتطير فرحة من غصن الى غصن ومن غنن الى غنن .

بعد هذه الصورة المفرطة في الرومانسية ، ينفجر ينبوع الحقد في داخل باروخ ، ويستمطر لعنات الهه على اعدائه من الجوييم :

فليسرع الرب بهلاكم ، وليصيبكم بالاوبئة ،
حتى تدخلوا الرعب على قلوبكم وتلوذوا بالفرار من أنفسكم .

ثم يطلب بعد ذلك من الله ان يبتليهم بالاحزان ، وان تحتقرهم الاشياء الزاحفة السامة التي يمقتها التراب ، وان يبلغوا من القبح درجة يخافون معها من النظر الى وجوههم ذاتها ، ويصل هذا الدعاء الكريه الى ذروته القبلية في هذه الابيات التي تذكرنا بدعوات بعض انبياء العهد القديم :

فلترسل يا الهي — اني اضرع اليك ان ترسل سيفك لتثأر منهم ،
ولتتركهم في بؤس شديد ، دون ذرية .
فلتصب حنقك على الامم التي لا تعرفك ،
ولتصب غضبك على الممالك التي لا تنادي اسمك ،
لانهم قد دمروا مساكن شعبك وأكلوا نصيب يعقوب .

وهو في مناجاته لحبيبته يتحول الى ما يشبه الفامبير ، مصاص الدماء :

في كل ليلة نصعد ، نصعد من قبورنا حيث دفنا ،
لنشرب دماء هؤلاء الجزارين حتى تسكر ارواحنا .
نرضع من أنهار الدم ، رشفة رشفة ، قطرة قطرة ،
نسكر من الحزن ونسكر من الآهات حتى تراهم عيناي يرتجفون .
لا يبل لي صدى ، واشعر بالشماتة من نظراتهم وقد تجمدت اثناء الليل من العاصفة ،
ومن شعرهم الذي يقف من الرعب .

ان عقدة شمشون تسيطر على العقـــل اليهودي ، فشمشون لم تعلمـــه هزيمته حب الانسان ، ولم تطهره آلامه من الدنس ، بل كان كل همه ان يحل الخراب على اعدائـــه حتى ولو أدى هذا الى فنائه هو شخصيا ، وقد استمد العون من ربه في عبارته الشهيرة « علي وعلى اعدائي يا رب » ، وهذا هو حال باروخ ، فهو الاخر شمشون لم يطهره الالم ، بل زاد من ضراوته وانعزاله ، ولذا فهو يشعل النار التي ستأتي على الدير وعلى المدينة ، والتي ستحرق بناته وتؤدي الى هلاكه في نهاية الامر :

أنظر هناك ! ان السنة اللهب المتألقة تقفز الى أعلى ،
يداي هاتان هما اللتان قامتا بهذا الفعل ،